عباس بيضون

صلاة لبداية الصقيع

شعر

دار الساقي

صلاة لبداية الصقيع

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- ب. ب. ب.
- الموت يأخذ مقاساتنا
- بطاقة لشخصين
- مرايا فرانكشتاين
- ألبوم الخسارة
- ساعة التخلي
- الشافيات

عباس بيضون

صلاة لبداية الصقيع

دار الساقي

إلى إيمان حميدان

أربّي قلباً

أربّي قلباً لهذه الساعة
لكن جسدي لا يسندني إلى الأخير
أربّي يداً تبسق أصابعها وتنبت عليها أزهار
أكتب على عظامي الكبيرة، صندوق جسدي
١٤ شباط ذات عام على طريق الأرز
لكن العشب الذي ملأ قفصي الصدري
وامتدّ على جوانبي
يغطّي عليها، لقد تكاثف منذ ذلك الحين
إنه شعر أحشائي، شعر فمي
لا تعجبوا إذا وجدتم ظفراً لا يزال هناك
لا تعجبوا إذا وجدتم تفاحة
أن سمعتم أسناني تصرف
فإن أشياء كثيرة تتحرك في صندوق صدري
هناك مفاتيح بتواريخ متعددة
الغيمة التي نزل منها أولاد على الثلج
الكلمة التي أمطرت كثيراً فوق الأشجار
السكّين الذي وقع على الطريق
من كيسٍ امتلأ بالهدايا
أربّي قلباً لهذه الساعة
أناديه فيأتي فوراً على صوتي
رغم أن لا اسم له
لا اسم لهذا اليوم على طريق الأرز
فهو ليس نسياناً، ليس تثاؤباً، ليس اعتذاراً
ربما يأتي كنملة مقطوعة الأرجل
أو كنحلة بلا أجنحة
لكنه سيكون أول نموذج من نوعه
وسننتج منه نسخاً كل يوم
سيكون له مفتاح ودولاب داخلي
وسنغلي فيه أعشاباً طبية
والماء الذي اسودَّ فيه
سيظل مقروءاً لبضعة أعوام

الصمت

إرمِ خيطاً في الصمت، إرمِ صرخةً فتغور فيه، إرمِ أسئلةً، ألغازاً، حبالاً ملفوفة وسكاكين، أفكاراً، فتختفي في جوفه. ليس له أذنان، ولن يسمع الوشايات والمكائد التي تُطبخ في داخله.

لن يشعر بالحكمة التي تنبت من بذرة جريمة، بالسؤال الذي يلتفّ كمشنقة. لن يلقي بالاً إلى مدوّنات أقدم، رسائل من قرون، سجلّات سحيقة.

إنه يفكّر وحده، السكاكين تظنّ أنها أفكارها، المدوّنات تعيد قراءة نفسها، الهواء يردّدها على أسماعنا، الحكمة تتصرّف كمكيدة، السؤال يشتدّ على العنق.

الصمت يفكّر ونظنّها أفكارنا. يأخذنا الهواء ويُسقط كلاً منّا على حَجَره، حيث يجد صحيفةً وحذاءين وربما لحيةً وأسناناً جديدة. وربما يجد من يزرعه هناك ومن يعطيه اسماً.

يتركنا الهواء ثم يعود إلينا ومن جديد يعود الصمت إلى الدوران، وفي اللحظة التي لا نجد فيها كلمة لنا، يلوح الخيط المدفون فينا كفكرة وربما كاسم، وربما كنصل.

الغراب

غرابٌ وحيد يقف على ساقٍ واحدة أمام شاطئٍ في عدن، ومع أنّ الوقت ليس مناسباً لفألٍ سيّئ فإننا نظل نعتقد أنه يحمل رسالةً خطرة في حوصلته. براثنه المطبوعة على الرمل ستتحول في الغد إلى رموز مشؤومة يتجنّبها الصيادون.

إنه يواجه الجبل الأسود المتآكل على الشاطئ، لكنه لن يطير إليه. إنه منذ مئتي سنة ينهي حياته الجيولوجية وتتفتّت قشرته كلّ دقيقة. الجبل يبصق أسنانه من لحظة للحظة والغربان تتكاثر حوله. قد يكون هو نفسه غراباً جيولوجياً، إذ لا نعرف في أيّ طورٍ احترق.

لن نجد زورقاً هنا، لكن السابحين لا يدركون أن هذا الصمت قد يكون حطام سفينة، وأنهم قد لا يخرجون أحياء من العصر التوراتي.

فجأةً ينعب غرابٌ فتتراجع الموجة ولا ندري من أيّ زمنٍ يصعد النعيب المتفاوت كثيراً مع حجم السنونوة الكبيرة التي تطلقه.

إذ ذاك نفهم أننا أمام طيورٍ ميكروسكوبيه، وأنّ العالم كلَّه قد يكون مكبّراً هذه اللحظة، ففي الصمت تتضاعف الأشياء، وحطام السفينة يتعاظم ويتشلّع في كل ناحية، إنّ عصافير نوح هي التي تستعمر الجو.

أنا

أنظر إلى الشاشة. هذا رجل ليس له كلامي ولا وجه مع ذلك أقول إنه أنا.

تلك الحافلة التي دهستني نثرتني على الشاشات. خرجتُ من تحت عجلاتها بروحٍ صغيرة حملتها كشمعة، لكنها ذابت في داخلي.

لكان أحرى بي أن أرميها لمتسول، لكان أحرى بي أن أملأها بالدخان والوقود، أن أضبطها على ساعة وأعيّن هكذا لحظات تدميرها.

جمعتُ أصابعي من عيدان الطريق وعظامي من الصفيح ومسامي من قطرات المطر. كابدتُ على الحيطان حيث لحيتي معلقةٌ كقناعٍ مع شاربٍ صغير وعينين ضيقتين.

خرجتُ برجلين مخيطتين وعمودٍ في الظهر وكان عليّ أن ألصق كتفَيّ بالمقعد حيث مرّت ثلاث سنوات من الانتظار.

لم أكن أنا حين مرّ الكلب ولم أكن أنا حين مرّ المتسول، والأرجح أن الحائط ظلّ يعطس بوجبة أسناني، بدَونا كتوأمين مسنّين، تبادلنا الأماكن واللحى، وحين سُمع العواء لم نعرف أيُّنا بدأ به.

كان نصفي متحجّراً حتى الخصر لكنه لم يكن أنا، لم يكن أنا حين أعطوني جوازي وجدّدوا لي ثلاث سنوات من الأسر، ولا حتى حين بدّل جدي اسم العائلة، أو حين ألقتني الحافلة عند قدميه، ووجدتُ القطة التي أكلت طحالي ميّتة.

شطرنج

لم يكن اليوم الثامن من الزمن. كان غداً طويلاً يأتي في أي وقت ويبقى إلى أن لا يعود هناك سنة ولا فصول، بل شطرنج كبير ملوكه متنكّرون وجنوده كذلك.

هناك قدرٌ لعوبٌ متنكّرٌ أيضاً ومجنّح يلعب على أجنحته ويجبر السعاة على كشف أقنعتهم. يغشّ علناً ويخسر ويبقى مع ذلك سيّد اللعبة.

ينادونه حتى يخرج بلحية كثيرة الطيّات كإلهٍ آشوري يلعب على لحيته، لا نعرف كم يوجد منه على الرقعة. هناك بالتأكيد عددٌ كافٍ. سنكشفهم جميعاً في نهاية الأمر بمجرد أن نجد خواتمهم ووجبات أسنانهم على المغاسل. ستكون قوتهم إذ ذاك مقتلعة ولن يقاوموا. ستكون هناك مناوشة صغيرة. بعدها سيسلّمون أجنحتهم ولحاهم.

لا نعرف ماذا نفعل بها، ليست نافعة إلاّ في الشتاء الذي يكون عادةً قصيراً في هذه البلاد. لا تثلج على الشطرنج والبرد يمكن أن يزول بكلمة، إنه ملبّد كجلد الذئب ولن نحتاج إلى تعويذة لطرده.

في اليوم الثامن، الذئاب لا تتنكّر ونلاعبها كجراء صغيرة. في اليوم الثامن لا نحتاج إلى لحية لطرد الشتاء.

المربعات التي تحوينا بلا مفاتيح وبوسع قشة أن تبثّ دفئاً. دائرة الطباشير تكفي وحدها لتكون مرقداً. تصنع مسكناً من أربعة خطوط وعصافير من كلمات.

مع ذلك ترتاب بالدعوة التي وصلتك، تخشى أن يكون الشرّ تحت كلمة، أن يكون الأذى أيضاً.

ستقتلني في مربّع وأعود حياً في مربّعٍ آخر، وسيتكرّر ذلك في بقية المربّعات.

سأجد ملكاً مقلوباً على وجهه وجنوداً مقتولين. الجميع بلا تنكّر بحيث بانوا جميعاً صعاليك.

الأرجح أنهم لن يحيوا إلا في لعبة أخرى وستأتي طائرات لترحيلهم.

سيقال عندئذٍ إن الشطرنج ليس سليماً، وسيأتي تقنيٌّ لإصلاحه ولن يخرج بسهولة من بين الآلات.

البرد

البرد. الضوء متحجّر ونحن، مع ذلك، نرى عبره. الهواء مسنون ونحن، مع ذلك، نرى عبره.

نرتدي أشياء كثيرة ذات أكتاف وأزرار. هكذا نمشي في خزائن، لكن العيون التي لا تزال عالقةً في الوجه، بصيصها يلوح من خلف النظارات.

طرد البرد الغيوم وكل زوائد النهار، طرد الشتاء بعجيجه وأقذاره، وها هو الآن أشبه بصندوقٍ زجاجي. إنه مبصر ونظيف وكامل الوضوح.

لا يعوي ولا يصفر ولا يترك أي علامة سوى ذلك الفراغ المعمّر. هربت العصافير والأشجار مجلّدة إلى درجة تتوقف فيها عن الارتجاف. البحر يبدو كأكواريوم حول المدينة التي تتكدّس داخله. الصقيع كلمة من زجاج تحشو الآذان، لكنها أيضاً تخترق وتنفذ إلى القلب، وأنا، الذي عليّ أن أكتب مقالةً لهذا اليوم، أفعل ذلك بأصوات الصقيع. عيناي تتحجّران وتشعّان كحجرٍ كريم، بينما قلبي يذرف دمعةً من جليد.

خارج الصفحة

يقرأ معي في الصفحة نفسها مع أنه يعرف أنّ هذا عديم المعنى. يتبعني بعينيه لكني لست أكيداً من أنه يتقصّد الفهم.

ثمة شيء في الجو خارج الصفحة، وربما تحتها، بلا رائحة ولا لون ولا حجم. ظننت أن من السهل تغطيته بورقة كبيرة. من الممكن طرده بالقراءة، وكلمة بعد كلمة يصبح خارج المكان.

هو، بدون أن يشعر بي، لا يريد أن ينسى شيئاً تحت الكلمات، وهذا الأثير العديم الطعم، لا يريد أن يبعده.

إنه يستمد وجوده تقريباً منه. هما لا يزنان، لكنهما هنا من أجلي.

لأنه ليس مأموناً تركي وحدي مع كتابي ليس مأموناً تركي وحدي مع رأسي أنا في العمر الذي لا تُعطى فيه السعادة كاملة، بل ممزوجة بهوامش وتعليقات تعكّر فيها.

البارحة أمضيت منتصف الليل وأنا أخابط حموضةً تهدّد بأن تصعد من جوفي. لقد خابطنا معاً. استطعنا إبعادها لكنها معركتي أنا. رأسي وحده الذي نجا. فريقي اختفى كأنما كان ينوي إغراقي.

الصباح لم يكن سهلاً. لم أشعر بأنني كنت ألقي كتابي فوق حفرة. ثمة نمال كثيرة تحته وإكسيرٌ خفيّ في القاع.

لم أشعر بأن جزءاً من وجودي يتنشّق غازاً ساماً وأن مرقدي مليءٌ بالنمال.

متقاعدون

مطرودون إلى قاعات التدخين حيث يبنون منازل من عيدان الثقاب وأحجار الدومينو أو يعمّرون أبراجاً من الدخان. مع ذلك لم يكن لديهم الوقت لينهوا لفافة أو يبعدوا فكرة.

ورغم أنهم ستينيون فإنهم يشعرون أنهم لم يتركوا وقتاً وراءهم، إنهم بالكاد عاشوا. لقد امتهنوا الحياة التي، مثل طابع بريد، أرسلتهم إلى الضواحي والحدائق الخلفية حيث يشربون البيرة في الظل، يقرأون أكفّهم التي يسقط كل يوم منها طالعٌ آخر. يعمّرون ألفباءات شاهقة ولا ينهون نهاراً كاملاً.

تفاحةٌ خضراء يمكنها أن تكون قافيةً مناسبة، لكن عقب سيجارة سيكون حظاً سيئاً. اللحظة ستكون ذبابة مقطوعة الأرجل والوقت يترنّح بقدمين من جصّ. البطالة لا تترك خطوات مع أنها تبقى غارقة في حذائيها الطويلين.

الطائر

ذهبت الابنة لتنام عند أمها في المستشفى، في الليل سمعتُ طائراً يغنّي في غرفتها، في الثالثة صباحاً أخذ يتكلم. لم أكن متأكداً أن هذه كلماتي التي أجابني عليها عقدٌ ماسيٌّ سقط بالغلط في العلبة. مع ذلك استمر حتى الشروق ذلك الطائر، الذي أيقظ الجميع، وهو يسرد كيف قضى أياماً على كتف متسولةٍ عمياء.

لم يكن الكتف انكسر بعد حين هاجر إلى بلاد الثلج. بعد ذلك التقطه كتاب وحبسه كل ذلك الوقت. فقأتُ بأظفري النهار الكسير فعامت الغرفة بمصله الرمادي وسكت الجميع.

عندئذٍ انتزعتُ الذكرى من قلبي ووجدتُ سبيلاً إلى النوم.

عتمة

عتمة نظرتْ إلي بوجهٍ مجعّدٍ جداً بحيث فهمت أنها تحمل فألاً سيئاً. صاحت بي: عد أدراجك فإن هذا النهار لن يعيش طويلاً.

النهار قاحلٌ تماماً وحين جرحته بظفري لم تنزل منه قطرةٌ واحدة.

أطلقتُ على الغيمة لقباً مضحكاً لكنها لم تفارق تجهّمها وغمغمتْ "الملك يموت".

كان يمكن لهذا الجفاف أن يقتل الشمس، هكذا يمكننا أن نتحدث عن سماءٍ من جِلد.

لكن الملك كان فعلاً مغطّى بدرعه وأكثر من شجرة دفعها خوفها إلى الركوع. فيما كان سيّد البحار يبيع سمكاً بائتاً والفلاح المحزون يعدم بقرته التي سقطت في الجبّ.

سمّيني

سمّي عظمةً في جسمكِ باسمي، ضمّيني بين حاجبيكِ. أصادف فردة حذائك، إنها توشك أن تنبح أمام المنزل. أصادف خاتمكِ قبل أن يصير مشنقة. أثير بقدمي كثيراً من الريح، لكني لا أستطيع أن أحرّر نفسي.

لا أخرج سالماً من هذا القفل إلا بكثيرٍ من المهارة، مع ذلك سأكون متسولاً خارج هذه الجدران.

يقفز عليّ جرذٌ آلي، إنهم يعيدون تصنيع ما قبل التاريخ. سيرافقني الموكب لكنهم يتركونني أتلاشى وحدي.

يملأون كيساً من الهباء ويطلقونه في الجو، تتحرك الحياة في فكٍّ مهجورٍ منذ ثلاثين عاماً. يتحرك اسمي مع جمعٍ من العظام الصغيرة ويصأصئ في الفضاء. إنها قصة دَينٍ لا يمكنني أن أردّه بكلماتٍ أقل، لكن الصدى الذي يتهيأ لجوابي سيكون عظيماً، سيكون مخيفاً ذلك الجبل الذي يأتي على ندائي.

ستتكسّر في ذلك الصوت عشرة قرون. مع ذلك سألمع بين حاجبيكِ، سأنعش اسمي بين إصبعيكِ.

نقود لمواصلة أحلامي

وراء خمسين عاماً جدارٌ رفعتُ حجراً منه فوجدتُ تحته كلباً منذ ذلك الحين. لم يكن لي وليست لي أيضاً الدمية المتضخمة التي تكلّم نفسها ولم تتعرّف عليّ، ولا الديك الهائج الذي انتفش ريشه وهو يهجم فاتحاً منقاره ليلتقطني.

كانت هناك أيضاً نعالٌ ولعبٌ لم أتذكّرها. تعرّفتُ فقط على قبر أخي، كنت لا أزال في سريري محتاجاً إلى نقود كافية لمواصلة أحلامي. معي في السرير مخطوطات ونقوش اختفت تواريخها.

منذ ثلاثين عاماً لم يحدث شيء. كانت ديوناً ميتة ولم يحدث شيء. ينبغي أن ننزع المسامير من جسم الماضي.

صورة شعاعية

تنبت أسنانٌ في هذه الأرض. حجرٌ مجوّفٌ كالقمع مدّوا عليه أسلاكاً وأقاموا محطة تليفزيون.

مبشّرون أتوا من الشمال احترقوا في غمرة اختبارهم الفظيع وبقيت جلودهم صاحية على الكراسي، الكاميرا التي في الشجرة اكتفت لذلك بتصوير الأحلام.

"من أنتم؟" ثمة أجوبة عديدة لجثّة وعليها أن تختار بينها. يمكنها أن تجد الجواب داخل بطيخة أو في قانصة ديك، لكنه، في كل الأحوال، لن يكون سوى رسالة طلاق.

سنجد سؤالاً آخر في حصّالة النقود. إنه مكتوب بلغة السماء، ثمة لائحة بخمسة عشر تصريحاً لا أحد يفهم منها أكثر من كلمتين. مع ذلك توالي المحطة عملها، تستدعي مبشّراً واحداً كل ليلة.

وأنا، قبل أن أصير في الداخل، تتصيّدني الكاميرا. هناك أجد هياكل كثيرة وصوراً شعاعية مكتوباً عليها "سرية جداً".

أجد قلبي الذي يتم تشريحه في كعب شجرة. عليّ أن ألبس جلد أحد المبشّرين، وأن أذهب مسلّحاً إلى الشمال، حيث الاختبار الأعظم يعيدنا محترقين إلى المحطة. قبل ذلك تحترق الأجوبة كلها، ونبقى مطمئنين، لأن الجثة تعرف.

يسألنا سوّاح عديدون عن قبر أحيرام، لكننا نجيب أنه سرق، وأن علينا أن نصلّي له في كل الجهات.

اليد

أحلم بقلع ضرس. ذلك يعادل أن أمشي حافياً أو أضيّع ورقة لعب. قلع ضرس يخلّف ذكرى تبتعد على ظهر طابع بريد. يشبه ذلك أن نرمي نرداً بين الغيوم.

غيمات شفيفات تتابعنا من الأعلى. تتوقف حيث نتوقف. غيمة من طبشور تمتلئ سراً بالمطر.

أحلم بأني أفقد يدي. خمسة أغصان ترتسم فوق رأسي، لكني أجد اليد في جيب معطفي. أجد جنبها ورقة رابحة لا أستطيع أن ألمسها، إن أنا حاولت ستحرق أصابعي. إنها ذكرى المرأة التي تركتني بدون يد. الغيمة التي توقفت فوقي رمزها. إنهما يسافران معاً.

خمسة ظلال تقف حولي. لكن التي أجدها في الفرن، مزيّنة أيضاً بخمسة خواتم، لا تزال تقبض على المنديل الذي انتظرته عاماً ولم يصلني. خاتم الزواج وحده صار رماداً.

المرأة التي أراها في الحلم تنزع أضراسي وترميها للكلاب. لكنها تزرع يدي وتتركها تفرّخ أغصاناً.

الحبيس

تنقلين قدميكِ الكبيرتين في الجوار، تحبسينني فيهما وأسمع من هنا ثقلهما وأنت تقفين أمام الميزان في السوبر ماركت. تحبسينني في سلك التلفون وأنت تساومين على زوجَي حذاء جديدين.

أسمع صمت قدميكِ في المترو، أسمع صفير النفق وموسيقى السماعة التي دسّها واحد في إذنه. يستمر الصفير بعد أن تعبري النفق، وبعد أن يمتلئ جسم الرجل بالموسيقى.

إنني الآن في مفتاح بيتكِ، وحيث أنا لا أتحرك، أتركِ تدخلين إلى علبة الزهايمر، حيث تلك الريشة على سرير أختكِ الذي يصفر أمامك.

هناك من يشيّد قدميكِ برجين على أرض التجربة ويرفعكِ صنماً فوق جبل العميان.

تنقلين جسدك الكبير في حرم المدينة حيث قتلوا البارحة رجلاً. السنونوة التي تغمضين عينيها لا تملك بعد جسداً تحضنينه. الريشة تمر بسبعة ألوان أمامك، وسبع أرواح تلفظها واحدة بعد أخرى.

لقد نسيتِ مفتاح أبويك هنا، حيث اختفت السروة من أمام الباب. وها أنتِ تنتصبين مدخنةً بساقين طويلتين. الريشة تلقي وجهها على الوسادة، وفي الفراغ البعيد ترتفع عصا معقوفة من الخوف.

إلى أختي

تحمل حدبة في ظهرها، كبيرة وبارزة كالجريمة. السماء هكذا صارت أعلى وكذلك الأشجار المنتصبة وأعمدة التلفون.

لم تتكلم عظامها، لم يرسل قلبها إشارة، عندما سقط كتفاها. أرادتها قوة غير منظورة أن تنخسف.

لم تكن دمية لكنها التوت كخيط الدخان وصارت لعبة. جسدها انطوى ولم يعد بيتها. إنه الآن كومة لا تعرف كيف تخرج منها. لقد سرقوه ولم تشعر. لم تسمع شيئاً في رأسها ينذرها.

تتأمل أن تكون هذه غيمة ركبت ظهرها، أو طاقية أخفتها عن العالم.

إنها تستدعي الآن غضبها لكنها تشعر أنه التوى مثلها. تستدعي قشعريرةً لكنها تحسّ أنها قسمتها نصفين.

تفكر أنها قد لا تكون الكلمة الأخيرة. تعرض نفسها على قضاتها العابسين لكنهم يخبرونها أن وقت العدالة، لهذه العائلة، لم يحن بعد.

لم يعد ذلك النهار الذي تقاسمناه حصصاً. تقاسمنا الشمس والبيت والفناء والغيوم. حصتكِ الأصغر قصمت ظهركِ.

لعبنا في الباحة، لكن عذاب الأشقاء يتأخر كثيراً. الماء الذي رميناه من النافذة سقط على حظّنا. نجونا من العجلات، لكن خرجنا بحدبة وساقين مكسورين. وقت العدالة لم يحن لهذه العائلة.

الكاهنة

المرأة الصغيرة، ذبابة المنزل، بطول مكنستها. في الواقع تبدوان توأمين وتصلان متراقصتين إلى الدرج.

مع ذلك هي في ثيابها السود نوعٌ من كاهنة. إنها تؤاخي حشرات البيت. تحبس الفئران، بكلمة، في جحورها. تجبر الذباب على أن يختصر دوائره. تلقي الاسم الأعظم على هرّة. تجمّد طيراً بإشارة وتقطع طريق نملة.

ماكينة الخياطة ماركة "سنجر" هي تقريباً ديرها. ما إن تنزل الإبرة في القماش حتى تبدأ شعرة الضوء، الصادرة من عينيها وجسمها، في تدوين ما تجد صعوبةً أكبر في تسجيله.

إنها تشرد بفكرها، إذ تخاف أن تبتعد عن البيت، اسم الله وحده يثبّتها فيه. تكرر اسم الله على النافذة وعلى كيس المؤونة، على خزانة الثياب وعلى عمود الفناء.

باضت ولدين، حين صارت لهما حراشف أخذا يتضاربان. صارا ضخمين حتى لم يعد في وسعها، هي المرأة الصغيرة، أن تفصل بينهما. مع ذلك آختها الأقدار، إنها بثيابها السود متأهبة لها دائماً. الموت يرود حولها وهي تعرف بالضبط إلى أين يصل وأين يتجه.

ما إن تُظلم حتى تجمع قطيعها في المأوى، والذي لا يعود تلحقه في الشوارع لكي لا يكون صيداً سهلاً.

إنها، في الواقع، قدر صغير يزداد ضآلة، ولم يعد في وسعه أن يحكم وسط هؤلاء الأشخاص الضخام. تنسى الاسم الأعظم وتغفل عن التعبّد على ماكينتها. في الواقع قدرها الصغير اسمه ترقّق العظام.

صلاة لبداية الصقيع

احتاج إلى تلك الكلمة لأبدأ، وإلى نحلة لتنقلها. لن أجدها في هذا الوقت، كم حيّاً مات تحت البرد.

أفكر أن أصنع لها جناحين ورأساً بعينين في المقدمة وأطلقها. لكن البرد لا ينقل شيئاً.

أفكر بكل تلك النمال التي بادت مع مؤونتها، بالذباب الذي نفق في مكانٍ ما، وربما خارج العالم.

أنظر إلى تلك الغيمة البيضاء وأناديها، لكن الكلام يلتصق بأسناني.

الصقيع لا ينتقل بالكلمات والغيمة وحمة على جلد السماء، لن نستطيع بواسطتها أن نتزلج عليها، لن أستطيع حتى أن أجد ثقباً لأختفي فيه.

أنا الوحيد الحي هذا الصباح. لقد أرّقتني هذه الفكرة، كان التلفزيون أمامي مليئاً بالأموات.

يمكنني مع ذلك أن أكون شاهداً، أن أكون تلك الغيمة البيضاء الثابتة على بطن السماء، يمكنني أن أمتطيها. هناك كلمة لذلك لا أعرفها، كلمة لإحياء العالم.

ستكون النمال أول من يأتي. ستحمل لي ذبابة أغنيةً من هناك. ستجدني نحلةٌ على آخر نَفَس، وهذه العبارة التي لم تفدني بشيء "الأزهار المريضة" ستكون هي الصديق الذي كلّمني عن صداعه في التلفون.

ستمتلئ الغرفة بهذه الكائنات وسأجرّها كسفينة نوح.

لكن النحلة التي وجدتها ميتة في مرطبان المربّى، قد تكون هي "الزهرة المريضة" ولن أستطيع بكل المعجم الذي حصلته أن أصنع عقاراً للشباب.

حتى إشعارٍ آخر

كانوا يبحثون عن مكان للقائهم. بدأ الأمر بلقاء حقائبهم، حقيبة جنب حقيبة في حافلة أو مقهى، ثم يقوم واحد ويعتذر من أنه لم يجد طاولةً أخرى.

يمكن أن يكونوا دخّنوا سوية، ودون قصد تعرّفوا على تبغ بعضهم البعض، نوعه قد يعادل اسماً وقد يسرّب، بدون انتباه، سراً صغيراً، لا يعرف صاحبه أنه يكاد يخرج من صدره.

لا يعرفون أنهم في اللحظة ذاتها قالوا الكلمة نفسها أمام التلفزيون، حين حيّوا لاعب كرة أو كولونيلاً.

لا يعرفون أنهم، في الصباح، تلقّوا الصحيفة نفسها، وربما إيعازاً مدسوساً فيها.

رطّب بعضهم وجهه بنفس كولونيا ما بعد الحلاقة، وحين يتصادفون في المماشي ستكون هذه هدية أحدهم للآخر. لن يتبادلوا التحية، لكن كلاً منهم سيظن أنه التقى نفسه.

قد يلتقون على نباح كلب أو دوي طلقة في حديقة الحيوان. سيبرزون أسنانهم ويزمجرون أمام أسود تُطرق برؤوسها. سيصوّرون نموراً نائمة. سيجرّون نعالاً هي في الأصل فئرانٌ من صوف، لكن نصفهم سيكونون في الأقفاص، وحين يمرّون ثانيةً سيجدون يافطةً مكتوبٌ عليها "للبيع".

في الجندية يصادقون أسلحتهم. حين يحلقون وجوههم يشبهون جميعاً الشاب في ورق اللعب. يبصرون جميعاً أحلاماً من كرتون، ويخافون من منظر الدم. يصطفّون حول صورة القرد الضاحك، لكنهم، في يوم، سيفاجَأون بأن الثكنة مغلقة "للترميم".

في المقهى يتكاثرون ويتراكمون. كلٌّ منهم يشيل الآخر عن ظهره وقد يوجّه له لكمة. يشعلون المقهى بسجائرهم ويختفون في الدخان. وذات صباح يصلهم مغلّف "حتى إشعارٍ آخر".

نساء الزهايمر

رُمين هنا عمياً بردانات وبلا سماء، وعلى عجل أسرعت إليهن الحيوانات القارضة وامتصّتهن الشمس، على عجل دخلت عقارب في قلوبهن.

بقين بلا أحشاء، فقط أعين وأسنان. يفرغن من كل داخل. لقد سالت نفوسهن وذابت أو شربها البوم.

أسماؤهن جمعتها النمال بعد أن سقطت كحبّات القمح في الثقوب.

عقولهن نهشتها الطيور. وقفن ثلاثتهن مستندات إلى السرير في انتظار أن يطرن مرةً أخرى. تطهّرن تماماً من كل جوف.

عيونهن شاخصة إلى الغيب، والفراغ المعقّم الذي ملأهن يفوح باليود. إنهن نظيفات كما لو خرجن من جراحة وثمة شيءٌ مقدّس كالنفتالين في أفواههن. جلودهن يابسة لمجاراة السماء، لم تكن الأبدية بعيدةً عن هنا.

بشعورهن المنبوشة المحيطة بوجوههن يشبهن الآلهة المنقوشة على النقود. كان يمكن إنتاج أوثان من هذه الجلود، وفي الفراغ الظاهر كان الاسم المقدّس ينمو كحبة العدس.

لا شيء هنا سوى الوحي، والوحي لا يتكلم كثيراً وينفذ بالكاد من بين الفكين المطبقين، يصل حرفاً واحداً ويتحطّم قبل أن نفهمه.

لقد استوى اللاشيء هكذا صنماً. استوى الصمت الذي، شيئاً فشيئاً، يكمل الألوهة. الصمت حيث لا تقول الأسرار إلا أسراراً. هكذا تمرّ الحياة ولا أحد يلتقطها. تمرّ وتخرج ولا تلتفت إلى أحد.

الأقارب المحيطون بالسرير لا يتحمّلون أن يكونوا بهذا القرب من الأبدية، أن يبقوا هكذا في الغرفة الخلفية لها، إذ القريب المتشنّج على السرير يتنكّر بجسده وسط رائحة اليود وهالات الذهول والفراغ في العينين.

يمرّ قطٌّ وينضمّ إلى المجموعة. يعجّلن إلى احتضانه. وفيما كان اللاشيء يتكوّن كنسيج العنكبوت، النسوة الثلاث أطللن من داخل العلّيقة، بينما الوحي، الذي أضرم النار فيها، يرفعهن على مهل في الشمس.

حجر في الفايسبوك

امرأة في الفايسبوك لا ترميني بحجر
حجرٌ لا يشكو من أنه ليس حجراً بعد
امرأةٌ لا تشكو من أنها لا تصير امرأة
لم يخترعوا ألماً مقابلاً لرميةٍ من الفايسبوك
نصف حياة يجرّها الطبيب الفايسبوكي
إنه ملاك لكنه يخدم تارةً كطبيب وتارةً كحجر
يخدم أحيانا كجنائني لمفاتيح الجهاز
تاركاً الطيور تزعق مع أنه لا ضجة بعد
كلمات تفتح مناقيرها وترمي في ذات اللحظة
عنباً مرّاً على فراخ صلعاء
ليست سوى فواصل وأحرف جرٍّ شرسة
تسمع زقزقتها بمجرد أن تغمض عينيك
لا أحد يختفي. لا تنقص حياة أحد عن الربع
إنها ملائكة تعمل كنواطير
لقد هبطت من السماء مع قسائم ممضاة
وستدخل بترتيبٍ أبجدي إلى أقفاص
بدون أن تكون سجينة
فهذه أمور لا تعرفها الآلات
لم يخترعوا سعادةً مقابلةً لليلة في الفايسبوك
ثمّة طائرٌ بدون اسم
لا يجد رأسه وعبثاً يتخيله فوق ريشه
لا يمكن أن نجمع عصفوراً من أربع ملاعق
لم يخترعوا بعد معجزةً للفايسبوك.

عشّ في السقف

عشٌّ يسقط من السقف، يبقّع الأرض ويطبع عصفوراً عليها. السقف يهبط قليلاً ويتكثف السرّ في الهواء وفي الوقت.عندئذٍ ينطبق الكتاب. تختفي الفكرة التي نقلتني إلى هنا وأتغطّى بجفوني.

يتجولون بين الموائد بأجنحةٍ قصيرة. المفارش المطوية على أيديهم لا تجعلهم يطيرون، إنهم يرتسمون على السقف ويعومون في الحَجَر.

العيدان تقف كالألغاز وتدخّن في الجو. يمشون في الكفّ ومن هناك يوجّهون الأجراس، من هناك يثيرون أمطاراً ورياحاً وخطوات كبيرة فوق الصعيد. يتخبّطون في الجملة العصبية والحبل الشوكي، وفي النهاية يطبعون الكفّ بكلّ إشاراته على الجدار ويدخلون منه.

السقف يهبط قليلاً ويلقي عشاً آخر. إنه يملك كل رموز القصة. الريح تدعوه لكنه كالكفّ، بأصابع قصيرة لا يستطيع أن يطير.

يتجولون بين الموائد. لكن العصافير تدوّي بين الأشجار حيث لا يزال نفرٌ قليلٌ لم ينصرفوا من التظاهرة.

اليعسوب

امرأة كاليعسوب، لا أدري بالطبع كيف. لقد وجدتُ الكلمة في رأسي فيما كنت ألاحق اسم فيلسوفٍ نسيته. فككت الكلمة، كان لها رأس وجسم وأجنحة. كان لها أيضاً طنينٌ لا يُحتمل. عادت وطارت، حين حاولت أن أجمعها من جديد.

في الصباح استيقظتُ مبارَكاً وشعرتُ أن إصبعي الوسطى وثنٌ حقيقيّ. فكرتُ مرةً أخرى بامرأةٍ مزررةٍ حتى العنق، وبالحبل الذي يمكنه أن يلتفّ حول رقبتها. كانت جان دارك تتقدم إلى المشنقة، وفجأةً تفككت الكلمة وسقط اليعسوب على قدمَيّ.

مشغل التشابيه

كان ينبغي أن أكون عصاه والماء الذي تجمّع تحت ركبته وقشرة الرأس التي تغطي ياقة معطفه.

كان ينبغي أن أكون كتابه أتسلّق مع الكلمات، المقيمة فيه من قرون، المآذن وهي تتنادى ليلاً.

أن أكون تحت سريره عند يقظته وينتعلني كالخفّ.

أن أكون في جيبه، منديله وساعته وجوربه الممزق.

كان عليّ أن أجمعه من رماد سيجارته وكسور ساعته وزجاج نظارتيه، أن أصلبه في عباءته، أن أنحته من الصمت شخصاً، ومن الصمم عبارة. وأن أرفعه مبدأً ثقيلاً يسقط كالمطرقة على جبهتي.

لن تكون لي طبعة ذقنه وعيناه الزرقاوان وصوته، كل ذلك اختفى معه، ضاع في مشغل التشابيه.

صبّوه على هيئة أرملٍ سَكوت تحت رقابة غربان عرجاء.

جاب في موريتانيا وتعلّم العربية على أقوامٍ سود، ولما رجع كان وجهه تحجّر وعيناه تزجّجتا.

جَمَلٌ بدواليب مشى على خطاه، ولمّا سقط من أول صدمةٍ على الرصيف، تبعثّر حِملٌ من الأوراق والعقاقير في الطريق. كانت السماء زجاجاً والرعد كسح الأرض، لكن الكلمة التي بصقها الرعد دامغة وتركت جرحاً في الثلج. وبالتأكيد، الأوراق، التي كانت كل حياته، انتقلت من سنة إلى سنة واختفت في أحد البيوت.

أمام الفندق

الأشجار نائمة أمام الفندق. عند العصر تندفع طيورٌ سوداء ترطم الجو بأجنحةٍ قاطعة ومناقير مسنونة وتتقدم صفّاً واحداً. لا يعرف أحد إلى أين تطير. في المقاهي قلّما يشعرون بذلك

ولا يفهمون كلمةً واحدة منه.

الصيرفي، حيث لا يتكلم أحد عند تبادل العملات، يضحّي بقطعة نقود.

في لوبي الفندق ناجون من الثورات أحضروا معهم، من أرض المعركة، مسدسات مطاطية مملوءة خمراً.

يعيدون على الشاشة إعدام ماري ستيوارت بوجود كثيرٍ من الكهنة والمتآمرين. الخيانة بدون رائحة ولا بدّ من أن نقطع رأساً لتصبح حقيقة. الصيرفي يحصي غلّته ويمنح مرةً أخرى قطعةً للشيطان.

رسالة في بحر

تبتعدين كرسالةٍ في بحر أو عصفورٍ على الأسلاك. في يدكِ ميدالية أمّكِ ووراءكِ هؤلاء الذين يجاهدون ليبقوا على قيد الحياة. لقد تعهّدوا بأن لا يتساقطوا في غيابكِ، لكن الشموع ستتزايد في غرفة الزهايمر.

ترتّبين الأريكة لضيفتك الصغيرة، ولا تتركين شيئاً لقدميها، مع أنك تسمعين، من سريرك، ضربات قلبها.

لقد وصلتِ. العظم الذي تحرّك في كاحلك يعيّن ساعة وصولك.

وصلتِ. المياه تصل إلى وسط الصندوق وأنت ترفعين ثوبك لتعبري.

ما من ذبابة تصفّق بجناحيها في هذا الهواء الراكد. آنية المطبخ وحدها تتأهّب لحضورك.

لن تتثاءبي أمام الباب، لكنك لن تدخلي مبتسمة. ثلاث دقائق بعد. المفتاح لا يدور بسهولة في القفل. الزمن يتمدد. هذا وحده ثمن غيابك.

أغادر العشاء مريضاً

أنبش القمح من جلدي. أنبش حبات المطر. ألقي معطفي على شجرة سرو، وأغادر بلا كتفين.

أتلفت فأرى تمثال المصارع ورائي. بعد قليل تزدحم الحلبة، لكن ينبغي أن أمنح قروشاً إضافية لمخيلتي التي بدأت تنفد.

في لحظة التشوش أرى نمراً يطارد الغيوم، مُقعداً يدفع كرسيه وكتابٌ مفتوح على وجهه. تعبر الغيوم بين الصفحات. جلد النمر معلّق على الباب، جلد الكتاب وجلد الغيمة أيضاً معلّقان.

من الصعب أن أسحب هذه الجثة من كل هذا الركام. الحلبة التي ترتفع ملأى بالثقوب. إنها تأتي من المخيّلة التي تحتفل هكذا بالشتاء. المُقعد أعزلٌ في كرسيه والمصارع هوى من كتفيه، لكن ينبغي أن نُخرج أيضاً الجثة من الفايسبوك حيث تقيم هناك بموافقة الجميع.

أردّ لكِ رسائلكِ وأغادر العشاء مريضاً، فأنا الذي أعادوا صبّي في جزمتين غليظتين، أشعر أنني تقريباً أختنق من قدمَيّ.

مقطوعة عن حياتي

أريد أن أكتب مقطوعةً عن حياتي. قد يكونون أخطأوا في تاريخ الولادة. قد يكونون أخطأوا في كل شيء. شخصٌ غيري هو الذي يحمرّ أمام الجميع ولا يحسن نقل كلماته التي يقولها بدون أن يقصدها. شخصٌ آخر سرقتُ حياته. قد يكون ضخماً وطويلاً لكني اختصرته. قد يكون ناجحاً وبارعاً لكني جعلته يفشل في امتحان البكالوريا، وخفيةً عني نجح في أمورٍ أخرى.

من يكتب هذه القصيدة، ندّعيها نحن الاثنين، لكنه لن يصرّ، سيتركها لي وحدي.

أخاصمه طول الوقت. أقول إنه يضع مسامير في حذائي، يبقّع سترتي بمرق الطعام ويتلعثّم قصداً لكي يُحرجني.

يعابثني. يرتدي عني معطف امرأةٍ شاله بالغلط عن مشجب المقهى. يتعثّر عني، يفعل هذا بي.

لست أنا الذي تداهمه أفكارٌ سوداء، لست أنا الذي لا أطيق جسمي. هو الذي جعلني أدور كمروحةٍ وأدوس على أقدام السيدات. لست أنا الذي يصمت غالباً. إنه يقف على لساني.

لست أنا الذي سقطت تحت الشاحنة. إنه هو الذي قفز إلى واجهتها كالقرد. لست أنا الذي يعيش، الحياة ليست معجزتي.

حين يصعد الندم إلى بلعومي أفكر بأني قتلته. يتبعني عندئذٍ كلبٌ بفكٍّ من مغناطيس يجتذب كل مسامير الشارع إلى جسمه.

ذكرى من السجن

لا أعرف ماذا كانت تعدُ لنا
الجرافات في الأعلى
بالتأكيد لم تكن تحفر قبوراً
ثم ماذا بعد السياج الشائك
سوى الرجع البعيد لخطواتنا
لم نكن وحدنا في الركن
كنا فرائس كاميرات كبيرة
نقلت وجوهنا
بلا عيون ولا أسنان
وبرقعٍ كبيرة على ثيابنا
ركبتان في الوسط
تزنان وحدهما جسمي المحني
الذي يثقل تحت شمس الظهر
كنا معقّمين
قمصاننا يبست على جلودنا
الأحذية التي جمعوها من الصحراء
قبل عشر سنوات
كانت معقّمة أيضاً.

في القارب

يشدّون وجبات أسنانهم
يفحصون بالملعقة أحناكهم
يشدّون الشالات على أعناقهم
ويمشون في الثلج
لقد مضت سنة
قبل أن يصلوا إلى ضريح الأخت المعذبة
لكنهم لن يجدوها
في هذا الموسم لا أحد في ضريحه
يتركونها إلى ضريح الأخ العاشر
يجدون عينين على وسادة
ومئزراً مشنوقاً من ياقته
وخيط نورٍ يؤدي إلى السرداب
لكن الأخ السادس
مدفونٌ حيث وُزن
وحيث بيع بالأُقّة
هناك من فضّل أن يرقد في حقيبة
ومن دُفن واقفاً
هناك من ثوى في خزانة
أو في جدار مكتبة
سرنا مع ذلك بعيون وصدور فارغة
المدينة مرئية من خلالنا
استرددنا أعيننا وسلاحنا
ووضعناها مع الذخائر في قارب
وحججنا زُمراً
يطير فوقنا الهدهد
إلى حيث لا يصل أحد.

شيء في الفم

أُصرّ كثيراً على أسناني
وأنا مطبق الفم في نومي
أظنّ أن ثمّة شيئاً أقوله عند ذلك
أو أنها معانٍ لا كلام لها تتحطّم
ثمّة أفكار تحت جلدي
ومشاعر في كل مكان من جسدي
تعربد أو تواصل حياتها الليلية
أتعجّب من أنّه، بعد أن أمضيت
طوال النهار
أطرد ذلك كلمةً كلمة
مالئاً الهواء به
زافراً إيّاه من بين شفتَي،
يبقى كامناً في أحشائي
جيوبٌ منه لم تتفرّغ
أعاني منها طيلة الليل
حينما تشتبك الألفاظ بالأسنان
أو تموت عليها
معانٍ وربما ألحان
لا كلمات لها
تعربد في حنجرتي.

الخوف

ثلاثة أسابيع والخوف، الذي قاومناه بالنوم، جفّ وصار بارداً. كل جهد يتحول إلى حجمٍ من الصمت، يتحجّر ولا نستطيع أن ندخل أصبعاً فيه. لمسنا هذا الجلد وكأنه قطعة حطب. كانت الرئة مرفوعةً كجرسٍ مقلوب، إنها من الزجاج والدم الذي يجرّ البقايا المتفحّمة واضحٌ فيها.

سيجارةٌ تأكل نفسها في الغرفة الثانية وعزمها يرتخي شيئاً فشيئاً. كل جهد يتحول إلى سكون، ولن نبادر لكي لا نلتقط أيَّ ذكرى معدية. لقد تكدّس شيءٌ على هذا العذاب، وبالتأكيد فإن التشويش المتراكم يتكثّف ولا نعود نسمع شيئاً.

هذا الجسم لفظ كل براغيه ولم يعد قادراً على أن يتألّم. يمكن أن نفكّر بأربعة أغصان على القلب، بأربعة أصابع مطبقة فوق الكبد، برئة زجاجية، ولا نرتعد.

ثمة حوادث انتحار صغيرة، نجدها في المطفأة ونتساءل ماذا يفعل سكّينٌ كبيرٌ في هذا السلام المنزلي.

الابنة فوق حاسوبها تطلي أظافر قدميها، شيء كحبات الرمل يصرص تحت الأصابع. شيء ثقيل في أسفل وجودنا ولا نحس.

نجمة البحر، التي تشبه يداً مفتوحة، متكمّشة بالكبد، بينما المناظير ترصد حرائق صغيرة في أعلى الدماغ. ترصد الخوف يتحول إلى جدول ويتم حصره في حجرة. ترصد الأرق الذي لا لون له ولا رائحة وهو يغلّف الجو. ثلاثة أسابيع كان دويها منتظماً ولم يخرج من الرأس.

الابنة تطلي بالخطر أصابع قدميها.

ألقّم نفسي. عشّ شَعرٍ في لقمتي وأسحب شعرةً على لساني.

كسرةٌ تقع بدمدمة. قطرةٌ تصطدم بالأرض.

وتر

العظم الذي نفر من قدمك كان وتراً. لقد وقع هناك مع عشبة، مع ذلك بقيت العلبة كاملة ولم يحدث صوت. ضوء صغير فقط تسرّب من بين الأصابع ونفذ إلى الخارج. ضوء صغير كان بديلاً من أغنية ولم يحدث أي صوت.

ضوء

الكتب مرتّبة فوق الطاولة ونظارة مكسورة فوقها. إنها جاهزة للقراءة. بزجاجتين مجروحتين يمكنها أن تعرف نفسها. ضوء أكبر قد يقتلها.

القبو

حجر يغوص في الذاكرة، يخرج وجهٌ من تحت الماء، بالكاد له ملامح. السنون بردت قسماته، ثمّة نسيانٌ كثيف يتجمع عليها. لم أعرفه. لقد عاد الحجر إلى العمق. إن عاد ذلك الوجه فلن يكون هاملت ولا يوسف النبي. لقد صنعت وجوهاً من الرماد والآن أصفّها في الشمس.

حول الكتاب

نبذة عن الكتاب

حجرٌ يغوصُ في الذاكرة،
يخرجُ وجهٌ من تحتِ الماء،
بالكادِ لهُ ملامح.
السنونُ بردت قسماتِهِ
ثمةَ نسيانٌ كثيفٌ يتجمّعُ عليها. لم أعرفْهُ.
لقد عادَ الحجرُ إلى العمق.
إن عادَ ذلكَ الوجهُ فلن يكونَ هاملت ولا يوسف النبي.
لقد صنعتُ وجوهاً من الرماد والآن أصفُّها في الشمس.

قيل في الكتاب

«بقلم خبير مبحرٍ في يَمِّ القصيد» النهار

نبذة عن المؤلف

عباس بيضون شاعر وصحافي لبناني، مسؤول عن الصفحة الثقافية في جريدة السفير.

كتب أخرى للمؤلف

«ب.ب.ب.»، «بطاقة لشخصين»، «الموت يأخذ مقاساتنا»، وفي الرواية «مرايا فرانكنشتاين»، «ألبوم الخسارة»، «ساعة التخلّي»، «الشافيات»